﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ [المعارج: 1 - 4]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

سـوَرُ القـرآن الكريم متناغمة الأغـراض، متـكـامـلـة الدّلالات

لمّا خُتِم أمرُ الطامّة الكبرى في سورة الحاقَّة حتّى ثَبت أمرُه وتساوى سِرُّه وجهرُه، ودلَّ عليها حتّى لم يَبق هناك نَوْعُ لَبسٍ في وجوب التَّفرقة في الحكمة بين المُحسِن والمسيء، وخُتِم بأنَّ تَرْك ذلك مُنافٍ للكمال فيما نتعارفُه من أمور العمّال بعد أن أخْبَر أنه يَعلم أنَّ منهم مكذِّبين، وكان السّائل عن شيءٍ يدلُّ على أنَّ السّائل لم يَفْهَمْهُ حقَّ فهْمه، ولا اتَّصف بحقيقةِ علمه؛ عَجَّبَ في أوَّل هذه السّورة ممَّن سأل عنها؛ فقال سُبحانَهُ: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾.

ومِنْ أوجُهِ التَّناسُبِ أيضًا أنَّهُ لمّا انطوت سورة الحاقَّة على أشدِّ وعيدٍ وأعظمِه؛ أُتْبِعَتْ بجوابِ مَن استبطأ ذلك واستبعدَهُ؛ إذْ هو ممّا يَلجأ إليه المعانِد المَمْحونُ، فقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ إلى قوله ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَاقِعٍ﴾: (وقع) تدلُّ اشتقاقاتُها على سقوطِ شيءٍ. يقال: وقع الشَّيءُ وقوعا؛ فهو واقع. والواقِعَةُ: القيامة؛ لأنَّها تقَعُ بالخلق فتَغْشاهم. والوَقْعة: صدمةُ الحرب. والوقائع: مناقِع الماء المتفرِّقة، كأنَّ الماء وقع فيها. ومواقِعُ الغَيْثِ: مساقِطُه[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 389.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقع).

والوُقوعُ: ثبوتُ الشَّيءِ وسقوطُهُ. والواقِعَةُ لا تقال إلّا في الشّدّة والمكروه، وأكثر ما جاء في القرآن من لفظ (وَقَعَ) في العذاب والشّدائد، نحو قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ [الواقعة: 1 - 2]، وقال سُبحانَهُ: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾. ووُقوعُ القولِ: حصولُ مُضَمَّنِه، قال تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ [النمل: 85] أي: وجب العذابُ الذي وُعِدوا لِظُلمهم[1]. ومعنى قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾: شديدٍ، محقَّقٍ، نازلٍ بهم.

2) ﴿دَافِعٌ﴾: (دفع) أصلٌ واحدٌ مشهور، يَدُلُّ على تَنْحيَةِ الشَّيء. يقال: دفعتُ الشَّيءَ أدفعُه دفعا. ودافَعَ اللّهُ عنه السّوء دِفاعا. والمُدَفَّعُ: الفقيرُ؛ لأنَّ هذا يدافِعُه عند سؤاله إلى ذلك. وهو قوله[2]:

والنّاس أعداءٌ لكلِّ مُدَفَّعٍ*** صفرِ اليدين وإخوةٌ للمُكْثِر

والدّفْعَةُ من المطر والدَّم وغيره. وأمّا الدُّفّاعُ؛ فالسَّيل العظيم. وكلُّ ذلك مشتقٌّ من أنَّ بعضَهُ يَدفع بعضًا. والمُدَفَّعُ: البعيرُ الكريم؛ وهو الذي كلّما جيء به ليُحمَل عليه؛ أُخِّرَ وجيء بغيره إكرامًا له[3].

والدَّفْعُ إذا عدّي بـ (إلى)؛ اقتضى معنى الإنالة، نحو قوله تعالى: ﴿فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: 6]، وإذا عدّي بـ (عن)؛ اقتَضى معنى الحماية، نحو قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج: 38]، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾، أي: حامٍ[4].

3) ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾: (عرج) تدلُّ اشتقاقاتُها على معانٍ ثلاثة؛ أحدها: المَيل، والثّاني: عدد، والثّالث: سموٌّ وارتقاء[5]. والعَرَج - محركةً -: الظَّلَع، وفعلُهُ: عَرَج - مثلّث الرّاء -؛ ومعناه: مَشَى مِشْيَة الأعْرج بِعِرَضٍ فغَمَزَ من شيء أصابه. وانْعرَجَ الطَّريقُ: مالَ، وانْعَرَج الشَّيءُ: مال يَمْنةً ويَسْرَةً؛ أي: انعطف. وعَرَج في الدَّرَجَة والسُّلَّم: رَقيَ، والمِعْراج - بكسر الميم وفتحها -: المِصْعد.

(1) الراغب، المفردات: (وقع).
(2) البيت لطُرَيْح كما في شعر طُريح بن إسماعيل الثقفي للدكتور بدر أحمد ضيف، ص: 90، وجاء فيه: (مُدقّع) بالقاف بدل الفاء.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دفع).
(4) الراغب، المفردات: (دفع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرج).

والعُروجُ: نُشوزٌ أو عِوَجٌ عن الاستواء في الاطِّرادِ إلى الأعلى أو الجانبِ كما يبدو في مشي الأعرج وفي الصُّعود في الدَّرَجَة، وكلاهما إلى أعلى، وكانْعِراجِ الطَّريق والوادي والبناء وكلّها إلى جانب. ومن العُروج بمعنى الصُّعود قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحجر: 14]، وقوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾، وجمع المِعْرَج: معارج، وجمع المِعْراج: معارِج ومعاريجُ. وقول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ فُسّر بالمصاعد والدَّرَج للملائكة أو للأعمال أو للأرواح. وكلُّ ما بقي في القرآنِ من التَّركيب؛ فهو مِنْ هذا العروج[1].

4) ﴿وَٱلرُّوحُ﴾: (روح) تدلُّ تصريفاتُها على سَعَة وفُسْحة واطِّراد. وأصلُ ذلك كلِّه: الرّيحُ. وأصل الياء في الرّيح الواوُ، وإنَّما قُلِبَتْ ياءً لِكسرةِ ما قبلها. فالرّوحُ: روحُ الإنسان، وإنَّما هو مشتَقٌّ من الرّيح، وكذلك الباب كلّه. والرَّوْح: نسيم الرّيح. ويقال أراحَ الإنسانُ؛ إذا تنفَّس. والرّوح: جبريل عليه السلام، كما قال الله جلَّ ثناؤه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: 193 - 194][2]. وهو المراد بالرّوح كذلك في قول الله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾، ولم يَحْكِ ابنُ جريرٍ خلافًا في هذه الآيةِ على أنَّ الرّوح هو جبريلُ عليه السلام[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عذاب الله تعالى للكافرين لاحقٌ بهم طُلِب أم لم يُطلَب

استفهَم مستفهِمٌ - واحدٌ أو جماعة - عن عذابِ الله تعالى - الّذي حدَّثتَهم به يا أيُّها النَّبيُّ الكريمُ - استفهامَ مستهزئٍ، أو طَلَبَه ودَعا به على نفسِه ثقةً باستحالةِ نزوله عليه، أو سألَ رسولُ الله ﷺ ربَّه سبحانه العذابَ للكافرين، وطلبَهُ لهم، ودعا به عليهم؛ فاعْلَمْ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عرج).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (روح).
(3) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 601.

أنَّه واقعٌ بهم - يا نبيَّنا - لا محالة، في الدُّنيا أو في الآخرة، وسواءٌ أُطلِبَ أم لا.

ذلك العذابُ واقع بالكافرين قطعًا؛ لأنَّ الله تعالى سلَّطَهُ عليهم، وهو صاحبُ "المراقي إلى الكمالات، والمعارج الدّالَّة على عُلوِّ الذّات"[1]، صاحبُ الفضائل والنِّعم، وإنعامُه وأياديه جلّ شأنه درجاتٌ، وهي تصل إلى النّاس على مراتبَ مختلفةٍ، فَهُم في نِعَم الله عليهم متفاوتون[2]، وهو سبحانه ذو العلوِّ والجلال والعظمة، والتَّدبير لسائر الخَلق، الّذي تعرج إليه الملائكةُ بما دبَّرها على تدبيره، وتعرج إليه الأرواحُ كلُّها، بَرُّها وفاجرها، وهذا عند الوفاة"[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

غرض الخبر في جملة ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾:

ليس من العقلِ السَّديد الدُّعاءُ على النَّفس بالعذاب

في هذا المَطلع ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ تعجيبٌ شديد مِن أن يَطلب طالبٌ عذابًا يَقع عليه ويحلّ به من عند الله تعالى ذي القدرة الجبّارة، المُتصاعِدَةِ في درجاتِ الانتقام مِن المُعانِدين، وكان الأَوْلى بهذا السّائل بدلَ أن يدعوَ ربَّه سبحانه: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: 32] أن يَدْعوَ: اللهمَّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندك؛ فاهْدِنا إليه.

وقد "كان كفّار قريشٍ يستهزئون فيسألونَ النَّبيَّ ﷺ: متى هذا العذابُ الّذي تتوَعَّدنا به؟ ويسألونه تعجيلَهُ، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يونس: 48]، وقال سُبحانَهُ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [الحج: 47]، وكانوا أيضًا يسألون

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 743.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1571.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 885.

اللّه تعالى أنْ يوقِع عليهم عذابًا إن كان القرآنُ حقًّا من عنده، كما قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: 32]"[1]، وهذا مِنْهُم في غايةِ العِنادِ.

دلالة التَّعبير بمُفْرَدَة السُّؤال، ونُكْتَةُ صَوْغِه ماضيًا في قوله: ﴿سَأَلَ﴾:

مفردات القرآن الكريم ثريَّة بالدّلالات

في التَّعبير بمفردة السُّؤال تربيةٌ للفائدة وتكثيرٌ لها؛ لأنّ "السُّؤال يكون تارة بمعنى طلَبِ الشَّيء واستدعائه، ويُعدَّى حينئذ بالباء، فتقول: سألتُ بكذا؛ أي: طلبتُه، وعليه قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾، أو بمعنى الاستخبار عن الشَّيء اعتناءً به، ويُعدَّى عند ذلك بـ"عن" أو بالباء، تقول: سألتُ عنه وعن حاله، وسألتُ بِهِ وبحاله، وعليه قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان: 59]"[2].

ومعنى ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ أي: "استخبرَ مستخبِرٌ عن العذاب متى يقع؟ على التَّكذيب، أو دعا داعٍ أنْ يقعَ البلاءُ بهم على وجه الاستهزاء، أو طلَبَ طالِبٌ ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾"[3]، و"يجوز أن يكون ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ بمعنى: استعجَل وألَحَّ"[4].

والتَّعبير عن سؤالهم بصيغة الماضي فيه دِلالَةٌ "على تَحقُّق وقوعه، إمّا في الدُّنيا؛ وهو عذابُ يوم بدرٍ، فإنّ النَّضْرَ – وهو المرادُ بالسّائِلِ في قولِ بعضِ أهل العلم – قُتِل يومئذ صَبْرًا، وإمّا في الآخرة؛ وهو عذابُ النّار"[5]. ثُمَّ إنَّ صَوْغَ السُّؤال فعلًا ماضيًا ﴿سَأَلَ﴾ يُسْهِمُ في تعظيم التَّعجيب، ويُقرِّر عظيمَ الإنكار؛ إذْ لا وجْهَ لسُؤالِ العذاب؛ لأنَّ المعنى:"دعا داعٍ على نفسِه بعذاب واقعٍ"[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 153.
(2) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 743.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 89.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 154.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 29.
(6) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 344.

جناس الاشتقاق يَدْعَمُ الدّلالة البلاغيَّة، مِنْ مِثْلِ الإنكار والتَّهديد

مِنَ الكلامِ ما يُسقِط صاحبَه، ويجعله أهلًا للإهمال

بلاغةُ الجِناس الاشتقاقيّ في ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾:

في التَّعبير عن الفاعلِ ﴿سَآئِلُۢ﴾ المأخوذ من مادَّة الفعل ﴿سَأَلَ﴾ تحقيقٌ لِجناس الاشتقاق، وذلك يَدعم إنكارَ سُؤالِه عليه، ويزيدُ في توبيخِه به، ويلفِتُ إلى ذلك، ويُجلّي مقصدَ التَّهديد والوعيد؛ ويُقَرِّر ذلك أيضًا ما في الفاعل ﴿سَآئِلُۢ﴾ مِن إيحاءاتِ التَّنكير والإفرادِ.

نكتَةُ تنكير ﴿سَآئِلُۢ﴾ لفظًا ومعنًى، ولطيفةُ إفرادِه:

التَّعبير عن الفاعل بلفظ ﴿سَآئِلُۢ﴾ يَدعم الإنكارَ والتَّوبيخ؛ إذ يَلفت إلى أنَّه سائلٌ نكِرةٌ لا يُكترَث لِسؤاله، كما أنَّه لا وجْهَ لهذا السُّؤال الجهول؛ فجاء لفظُ ﴿سَآئِلُۢ﴾ مُبْهمًا منكَّرًا، غيرَ معيّنِ الاسمِ والصِّفة، كما أنَّه سائلٌ مُبْهَمٌ نكرةٌ لا يُؤبَه لَه، ولا يُقام لسُؤاله وزن؛ و"لا يعدو أن يكون واحدًا من هؤلاء السُّفهاء، الرُّقعاء، الّذين رَكِبَهُم الجهلُ والغرور، حتّى لقد خُيِّل إليهم أنَّهم أوتادُ هذه الأرض، وأنَّهم لو أخْلَوْا مكانَهم منها؛ لفسَد نظامُ الكون، واضطرب أمرُ النّاس"[1].

وفي إفراد ﴿سَآئِلُۢ﴾ إيحاءٌ بأنَّه "لو لَم يَسأل عنها - أي: عنِ الآخرة وعذابها - إلّا واحدٌ مِن العباد؛ لكان جديرًا بالتَّعجُّب منه والإنكار عليه بالإفراد في قوله: ﴿سَآئِلُۢ﴾"[2].

وذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّ "السّائل هو نوحٌ عليه السلام؛ سأل العذابَ للكافرين، وقيل: هو رسولُ الله ﷺ دعا بالعقابِ عليهم"[3]، ووجهُ هذا القَولِ: أنَّ الله تعالى قال في آخر الآياتِ: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾"[4]؛ فيكون تنكيرُ ﴿سَآئِلُۢ﴾ على هذا القولِ لإرادةِ التَّعظيم، والإيحاءِ بأنَّه سائلٌ ذو قَدْرٍ جليلٍ.

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1156.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 389.
(3) القِنّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 308.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 637.

غرَضُ السُّؤال المفهوم من جُمْلَةِ ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾:

سؤالُ الاستهزاءِ موجِبٌ للعُقوبة؛ فيَجِبُ الحذَرُ منه، بخلافِ سُؤال الاسترشادِ

قول الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾؛ تقديره: كيف يُعذِّبنا اللهُ ونحنُ أقربُ إليه وأَوْلى به، بدَليل ما حَبانا مِن أموالٍ وأولادٍ ونُفوذِ كلمَةٍ ورأيٍ وقرار؟ وغرَضُ صدور هذا السُّؤال منهم تكذيبُ الرَّسول ﷺ في دعوته، والتَّهكّمُ به والاستهزاء بدين الحقِّ، و"الواجب على مَن كثُرت عليه النِّعم مِن آخَرَ؛ أنْ يكون هو أشكَرَ للنِّعم، وأطوعَ له فيما يدعوه إليه مِن الّذي قلَّت نِعَمُه عليه، فإذا كانوا مُقِرّين أنّ نِعم اللّه عليهم أكثر، وإحسانَهُ إليهم أوفَرُ؛ أوجبَ ما ذكروا أنْ يكونوا هُم ألزمَ لطاعته، وآخذَ لِما يأمرهم به"[1].

ولو كان سؤالُهم سؤالَ استرشادٍ واستعلام؛ لَعَلَّمَهم وأرشدهم، اطِّرادًا على مَنْهَج القرآن الكريم: "وَيَسْأَلونَكَ عن كذا"؛ فقُلْ: كذا وكذا.

معنى (الباءِ) في قولِهِ: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾:

تكثيرُ معاني الفِعْلِ بتَعْديَتِه بغَيْرِ حرفِه الذي يتعدّى بهِ أصالَةً

من بلاغة النَّظم القرآنيِّ هنا تعديةُ الفِعْلِ ﴿سَأَلَ﴾ بـ (الباء) في قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾، فيصلُح لمعنى الاستفهام والدُّعاء والاستعجالِ معًا؛ لأنَّ (الباء) تأتي بمعنى (عن)؛ وهو مِن معاني (الباء) الواقعة بعد فِعل السُّؤال، نحو قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان: 59]، وقولِ علقمَةَ:

فإن تسألوني بالنِّساء فإنَّني *** خبير بأدواء النِّساء طبيبُ[2]

أي: إن تسألوني عن النِّساء، فـ (الباء) في قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ بمعنى (عن)؛ أي: سأل سائلٌ عن عذاب واقعٍ، فآثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبير بالباءِ على التَّعبير بـ (عن) إلماحًا إلى وِجهة السُّؤال، وأنَّه بمَن يَقَعُ؟ والكفّار يَرَوْنَ أنفُسَهُم الأبعدَ مِن وُقوعِه بهم، ونزولِه عليهم[3].

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 195.
(2) علقمة بن عبدة، ديوانه، ص: 23.
(3) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 250.

و"ضُمِّنَ ﴿سَأَلَ﴾ معنى (دعا) فَعُدِّيَ تعْديتَه، كأنَّه قيل: دعا داعٍ بِعَذابٍ واقِعٍ؛ من قولك: دعا بكذا؛ إذا اسْتَدْعاهُ وطلبَهُ. ومنه قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ [الدخان: 55]"[1].

لطيفَةُ التَّعبير بالسُّؤال على تأويل ﴿سَأَلَ﴾ بـ (سُئِلَ):

زيادةُ التَّعجيب مِن السُّؤالِ

قال ابنُ عاشور: "وقوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ بمنزلة (سُئِل)؛ لأنَّ مجيءَ فاعلِ الفِعْلِ اسمَ فاعلٍ مِن لفظِ فِعْلِه لا يُفيد زيادةَ علمٍ بفاعلِ الفِعْلِ ما هو؟ فالعدولُ عَن أن يقولَ: سُئِل بعذابٍ إلى قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ﴾؛ لِزيادة تصوير هذا السُّؤال العجيبِ، ومثله قول يَزيدَ بْنِ عمرِو بْنِ خوَيْلِدٍ يُهاجي النّابغَةَ:

وإنَّ الغَدْرَ قَد علِمَتْ مَعَدٌّ *** بَناهُ في بَني ذُبْيانَ باني"[2]

وفي حَمْل ﴿سَأَلَ﴾ المبنيِّ للمعلوم على معنى (سُئِل) المبنيّ للمفعولِ تربيَةٌ للفائدَةِ وتكثيرٌ لعطاء التَّركيب؛ وذلك بإضافةِ إشارَةٍ دلاليَّة جديدة؛ هي الإمعانُ في تحقير السّائل وتجاهُله؛ إذ يكون قَد طوي طيًّا وأُخفي إخفاءً.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿بِعَذَابٍ﴾، ولطيفةُ تنكيره:

عذابُ المستهزئِ بالدّين فظيعٌ مُنْكَرٌ نَكارةَ كُفْرِه

العذابُ: الوجَعُ الشّديد، وأصل التَّعْذيب: إكثارُ الضّرب بِعَذَبَةِ السّوطِ؛ أي: طَرَفِها، وقال بعض أهل اللّغة: التَّعْذيبُ هو الضّربُ[3]، وأُعذِب الحوضُ؛ أي: نُزِع ما فيه من العذَب؛ أي: الكَدَر، وعذُب الحوضُ: صار مُسْتَساغًا، والعذْبُ مِن الشَّراب والطَّعام: كلُّ مُسْتَساغ، ومنه "عَذْبٌ" في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ [الفرقان: 53]؛ أي: حُلوٌ شديد العذوبة؛ ففي التَّعذيب معنى الإزالةِ في التَّفعيل؛ فيكون معنى عذَّبه: أزال عَذْب حياته، كمرَّضه: أزال مرضَه[4].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 608.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 155.
(3) الراغب، المفردات، (عذب).
(4) الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: (عذب).

وفي التَّعبير بـ (عذاب) في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ دلالَةٌ على شدَّة ما يُعانيه صاحبُه من الإيلام بإزالة عذوبةِ حياته الدُّنيا، وإيجاع الضَّرب والحرقِ والتَّلَظّي في ﴿لَظَىٰ﴾. والعذاب المقصودُ في الآية الكريمةِ إمّا عذابُ الآخرة، أو عذابُ يَوْمِ بدْرٍ بالقتل والأسْر[1].

وفي تنكير لفظِ (عذاب) دلالةٌ على التَّعظيم؛ أي: إنَّه عذابٌ عظيمٌ جدًّا[2]، فالتَّنكير للتَّهويل والتَّفظيع، وأنَّه عذاب لا يُحاط بخَطَرِه وصفًا. ومن رحمة الله تعالى بعباده أنَّه حذَّرهم من الكفر ولوازمِهِ وهُمْ لا يزالون في الدُّنيا، ولا يزالُ إمكانُ التَّوبة والأوْبة لهم لائحًا، فطوبى لمَن خاف مقام ربِّه.

نكتةُ وصفِ العذاب بالواقع، ولطيفةُ صَوْغِهِ اسمَ فاعل:

ليس دينُ الله تعالى ممّا يجوز أن يُستهزأ ويُتهكَّم بِهِ

في تقييد (عذاب) بوصْفِ ﴿وَاقِعٍ﴾ تعجيلٌ للسّائل بالوعيد، وقطْعٌ له بالعقوبة؛ جرّاء استهزائِهِ وتهكّمه؛ إذْ ليس ذلك ممّا يُستهزأ ويُتهكَّم به. ووَصْف ﴿وَاقِعٍ﴾ يُهيِّئ لذِكْرِ المتعلّق ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ ويُمَكِّنُ لربْطه بهم.

وقوله: ﴿وَاقِعٍ﴾ أي: حالٌّ بِهم لا محالَة في علم الله تعالى، أو أنَّ معناهُ سيقَعُ، كما يُقال: قابِل، بمعنى: سيقبَلُ[3].

وعُبِّر بصيغةِ اسم الفاعِلِ في الوصف ﴿وَاقِعٍ﴾ لما في صيغَةِ الاسْميَّة من دلالةِ الثُّبوتِ، وذلك يَقْتضي وقوعَهُ لا محالة، وبذلك تتآزر الصّيغة الصَّرفية (فاعل) مع المادَّة اللُّغويَّة -وهي الوقوعُ- على القَطْعِ بنُزول العذاب بهؤلاء الكافرينَ المُكَذّبين بالدّين المستهزئين بالعذابِ.

(1) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 90.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 390.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 195.

دلالَةُ التَّعبير بالوُقوع في قولهِ: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾:

عـذابُ الكافرين فتّاك، ولا يَدانِ لهم بِدَفْعه

في التَّعبير بمُفْرَدَةِ الوُقوع في قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ دلالة على قوّة إصابة العذاب هؤلاء الكافرين المُسْتَهْزِئين بالدّين؛ إذْ في مادَّةِ الوُقوع إشارةٌ إلى الهُبوط من عُلوٍّ، وسقوطُ الأجرام المحسوسَةِ من أعلى يَجْذِبُها إلى الأسفل بقوَّةِ الجاذبيَّة الأرضيَّة، فكأنَّ عذابَهم - حِسّيا كان أو معنويًّا - سيَسْقُط علَيْهِم سقوطًا فاتِكًا لا يَدانِ لهم بِدَفْعه.

والعذابُ المُرْسَل منه تعالى إلى الكافرين عذابٌ يَسقط عليهم مِن سماواتٍ عاليَةٍ؛ فلا يُمْكِنُ لِقوّة أنْ تَحول بينه وبين أن يَهويَ على رُؤوس الكافرين؛ إنَّه أشبَهُ بالأحْجارِ الّتي تَهْوي مِن السَّماء على رُؤوس مَن هُم في دائرة سُقوطها[1].

بلاغةُ المَجازِ في قوله: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾:

العذابُ وأسبابُهُ تَحْمِلُ للكافرين الغيظَ والبُغْضَ

في إسناد الوقوع إلى العذاب في قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ مجاز عقليّ؛ إذِ العَذاب وأسبابُه لا تقع مِن تِلْقاء أنفُسِها، وإنَّما توقَع بأمرٍ من الله تعالى ومعالجةٍ من الملائكةِ الموكّلين به.

غير أنَّ إسناد الوقوع إلى العذابِ نفسِه يوحي بِشِدّة حنَقِه على الكفّار، ويدلُّ على أنَّ العذاب نفسَه ناقِمٌ عليهم، وكأنَّ له إرادةً، فيُريدُ مِن تِلْقائِهِ الوُقوعَ على الكفّار والحُلولَ بهم غيظًا وبغضًا، كما قال تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: 7 - 8]، والعياذ بالله تعالى من الكُفْرِ وعذابِ أهلِه.

معنى (اللّام) في قوله: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾:

الـجـزاء مِـنْ جنس العمَلِ

(اللّام) في قوله: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ تدلُّ على التّعليل؛ والمعنى: أنَّ العذابَ نازلٌ لأجْلِهم. ويجوزُ أن تكونَ (اللّامُ) بمعنى

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1158.

(على)؛ أي: بِعَذابٍ واقِعٍ على الكافرين[1]، وفي ذلك تَهَكُّمٌ بِهِم على وجه الاستعارةِ في الحروفِ؛ إذ شُبِّهَت (على) الّتي للمضرَّةِ باللّام الّتي للمنفعَةِ، فهي نظيرُ قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ﴾ [آل عمران: 21][2]، فقوبِلَ استهزاؤُهُم باستهزاءٍ؛ جزاءً وفاقًا.

دِلالةُ الإدماجِ في قوله: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾:

من مزايا النَّظم الكريم إدماجُ أغراضٍ في أغراضٍ أخرى بِتَخلُّصٍ بديعٍ

وَصْفُ العذاب بأنَّه ﴿وَاقِعٍ﴾ وما بعدَه مِن أوصافه إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ إدماجٌ معترِضٌ؛ ليفيد تعجيلَ الإجابة عمّا سأل عنه سائلٌ بِكلا معنيَي السُّؤال؛ لأنَّ السّؤال لم يُحَكَ فيه عذابٌ معيَّن، فحُكي السُّؤال مُجْملًا ليُرتَّب عليه وصفُه بهذه الأوصافِ والتَّعلُّقات، وقد طويَتْ في طيّاتِ هذه التّعلُّقات جُمَلٌ كثيرة، فكان الكلامُ بذلك إيجازًا؛ إذْ حَصَل خِلالَها ما يُفهم منه جوابُ السّائل، واستجابةُ الدّاعي[3].

دلالة التَّعبير بالكُفر دون الشِّرك، ولطيفَةُ صَوْغِه اسمَ فاعلٍ في (الكافرين):

بيانُ حلولِ العذابِ بأصناف الكُفّارِ جميعًا

الشِّرْكُ أخصُّ مِنَ الكُفْرِ؛ إذ الكُفْرُ يكون بالتَّكذيبِ، وبالنِّفاقِ، وبغيرِهما، ويكون بالشِّرْكِ أيضًا، ولِذا يُذكر أهل الكتابِ في صِنْفِ الكافرينَ مقابَلًا بِهم صنفُ المشركين، كما قال الله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾ [البينة: 1]. وآثر النَّظم الكريم التَّعبير بالكُفْرِ في قوله تعالى: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ العذابَ يقَعُ عامًّا على جميعِ الكافرينَ؛ مشركينَ كانوا أو غيرَهُمْ.

وصيغةُ اسمِ الفاعلِ في (الكافرين) تدلُّ على كونِهم راسِخين في هذا الوصفِ، والمعنى: إنْ كان لَهُم في الآخِرَةِ شيءٌ؛ فَهو العذابُ[4].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 209.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 390.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 155.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 390.

بلاغَةُ التَّعبير بأسلوب الحكيمِ في قوله: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾:

مِن حكمة القرآن تَلَقّي السّائل بالجواب الأهمّ، بقطْعِ النَّظر عن مطلوبِ سُؤالِهِ

في قوله تعالى: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ جوابٌ عن سؤالِ السّائل بغيرِ ما يطلُبُه؛ فهو أسلوبٌ حكيم؛ حيثُ كان السّؤال عن طلَبِ نُزولِه استهزاءً وتهكُّما، فجاء الجواب عن أمرٍ آخَرَ ممّا عَدَّد مِن أوصاف العذاب، وهولِه ووَقْتِه، وأنَّ ذلك هو الأوْلى لَهُم أنْ يسألوا عنهُ، فيَعْلَموه ليحذروهُ، دون أن يَخوضوا في تَعْيين وقتِه.

فحصل مِن هذا كلِّه معنى: أنَّهم سألوا سؤالَ استهزاء عن وقتِ العذاب الّذي هُدِّدوا به ووَصْفِه، ودَعَوا اللّه أنْ يرسل عليهم عذابًا إنْ كانَ القرآنُ حقًّا؛ إظهارًا لقِلَّة اكْتِراثِهم بالإنذار بالعذابِ، فأعْلَمَهُم أنَّ العذاب الّذي استهزؤوا به واقعٌ لا يَدفعه عنهم تأخُّرُ وقته، فإن أرادوا النَّجاة فليحذروه[1].

دلالة ﴿لَيْسَ﴾:

بيانُ تحقُّقِ وُقوعِ العذابِ بالكُفّار

جاء نفيُ حلولِ العذاب بالكافرين بـ ﴿لَيْسَ﴾ دون (لا) في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ لأنّ النَّفي بـ ﴿لَيْسَ﴾ يهيِّئ لتقديم المتعلّق ﴿لَهُۥ﴾ في جملة ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾، ووراء ذلك التَّقديم إشاراتٌ مهمَّة يأتي التَّنبيهُ عليها. بخلاف (لا)؛ فإنَّها لا تهيِّئ لذلك التَّقديم، فلا يقال: لا لَهُ دافِعٌ؛ فتقرَّر أنَّ ﴿لَيْسَ﴾ أحقُّ بالسّياق، وأدقُّ لتأدية الدّلالة المطلوبة.

كما أنَّ ﴿لَيْسَ﴾ لنفي الحال عِنْدَ الإطلاقِ والتَّجرُّد عن القرائِن، فأفادَ النَّفيُ بها أنَّ العذابَ لتحقُّقِ وقوعِهِ كأنَّه ينزِلُ بهم في الحالِ وهم لا طاقَةَ لهم بدفعِهِ.

معنى (اللّام)، وبيانُ مَرْجِع الضَّمير في: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾:

بيانُ شدَّةِ ارْتِباطِ عذابِ الكُفّار بهِم، فلا يَنْفَكّون منهُ

(اللّام) في قوله: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ لِشبه المِلك؛ أي: إنَّ عذاب الكافرين هو مِن خصائصهم، كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 156.

وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ [البقرة: 24][1]، فكأنَّه لقوَّة ارْتِباطِهِ بِهِم ونفاذِه إليهم مِلْكٌ لهم لا يُدفع عَنْهُم، ولا يَنْفَكّون منه. والضَّمير في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ﴾ يرجع إلى العذابِ المذكور في قوله: ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾.

دلالة التَّعبير بالدَّفع، ولطيفة صوغه اسمَ فاعل في ﴿دَافِعُۢ﴾:

النَّظم الكريم يَضْطَفي المفرداتِ المُصَوِّرةَ بطَبْعِها

في التَّعبير بمفردةِ الدَّفْع المنفيَّة عن عذاب الكافرين في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ - أي: رادٌّ[2] - تصويرٌ لِقوّة توجُّهه إليهم، وشِدَّة تصويبِه نحوَهم؛ لأنَّ مادَّة الدَّفع مُصَوِّرَةٌ بِطَبْعِها لِلمُقاوَمة الشَّديدة؛ فهي بخلافِ كَلِمَة الحَيْلولَةِ أو المَنْع مثلًا. ولو قيل في غير النَّظم الكريم: للكافرين ليسَ له حائِلٌ، أو مانِعٌ؛ لَما كان فيهِ ما يوحي بقوَّة المهاجِم وشدَّة انْدِفاعِهِ نحوَ المهاجَم كما في ﴿دَافِعٌ﴾.

بلاغة الفواصل ﴿وَاقِعٖ﴾، ﴿دَافِعٌ﴾:

مِن خصائص الفواصل القرآنيَّة تَناغُم معانيها إلى تناغُم أصواتِها

بين ﴿وَاقِعٖ﴾ و﴿دَافِعٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾، و﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ تَناغُمٌ معنويّ بديع، وإيقاعٌ صوتيٌّ لافِت؛ إذْ مِن لوازم الوقوعِ السُّرعةُ والقوّة بِفِعْل الجاذبيَّة؛ فيَقْتَضيان - لِمنعهما - قوةَ دَفْع شديدة، ولا توجَد قوةٌ تَمنع أو تدفع عذابَ الله تعالى السّاقطَ على هؤلاء المستهزئين؛ وبذلك يتمُّ التَّناغم بين معنيَي ﴿دَافِعٌ﴾ و﴿وَاقِعٖ﴾، كما تَمَّ التَّناغُم بين إيقاعِ لَفْظَيْهما، وذلك مِن خصائصِ الفَواصلِ القُرآنيَّة البديعيَّة.

معنى ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾:

مِن خصائص النَّظم الكريم تَعدُّد جهاتِ التَّعَلُّقِ؛ وذلك مِمّا تُفعِمه بالدّلالات ويوثِّق عُراه

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ للابتداءِ المَجازيِّ، وهو يتعلّق بـ ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ كما يتعلّق بقوله: ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾؛ وذلك التَّنازُع يُحقِّق للتَّركيب الوثاقةَ وشِدَّة التَّرابُط اللَّفظيِّ والمعنويِّ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 155.
(2) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 535.

ووجْهُ تَعَلُّق القيد ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بقوله: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أنَّ العذاب محكومٌ به عليهم ﴿مِّنَ﴾ قِبَل الله تعالى، ومِنْ لدُنه ﷻ، وإنَّما يُنَفِّذُه الملائكةُ الموكّلون بالعذاب. وهو عذابٌ مرسَلٌ عليهم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾[1]، ولا ريب أنّ عذابًا واقعًا مِنَ الله تعالى؛ ليس له دافعٌ غيره سبحانه يستطيع دفعَه عنهم. كما أنَّه ليس لإيذائه احتمالٌ؛ فذلك وعيدٌ شديدٌ وتهديد مرعِبٌ مخيف.

ووجْهُ تَعَلُّق القيد ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بـ ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ أنَّه ليس لذلك العذابِ الصّادرِ من الله تَعالى دافِعٌ مِن جِهَتِه ﷻ[2].

لطيفَةُ إيثار التَّعبير بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾:

للتَّعبير بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ في مقام ذِكر العذاب جلالٌ يلائِمُ التَّرهيب ويعزّز التَّهديد المقصود؛ "أي: الملك الأعلى الّذي لا كُفْؤَ له، فلا أمْرَ لأحدٍ معه، وإذا لَم يكُن له دافِعٌ منه؛ لم يكن دافع مِن غيره"[3]. ففي ذِكْرِ الاسم الأحسَنِ "ما يُدْخِل الخوف والرَّهبة في قلوب الكافرين؛ إذ إنَّ كلَّ المخلوقات تحت قَهْرِ سُلْطانه، والملائكة - ذلك الخلق العظيم - تَصعد إليه في معارج السَّماوات ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: 6]، فما أشدَّ بطشَهُ وما أعظم أخذَه ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾ [هود: 102]"[4].

ذِكْرُ الاسم الأحسَنِ في مقامِ ذِكر العذابِ جلالٌ يلائِمُ التَّرهيب ويعزّز التَّهديد

أمّا وصْفُ الرَّبِّ ﷻ؛ فيُلائم مقاماتِ الامتنانِ بالتَّربية والعطاءِ، ولذا آثَرَ النَّظم الكريم هنا النَّصّ على أنَّه عذابٌ واقعٌ من اللهِ تعالى؛ فتمّ للمَقام جلالُه وللسّياق امتلاؤُه.

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1157.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 638.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 390.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1572.

معنى ﴿ذِى﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾:

﴿ذِى﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ أي: مَن لَهُ المعارج؛ كقوله ﷻ: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج: 15]؛ أي: الّذي له العرشُ[1]. وفي وصفه تعالى: بـ ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ إشعارٌ بكثرة مراتبِ القُرْبِ من رضاه وثوابه؛ فإنَّ المعارج مِن خصائصِ منازلِ العُظَماءِ، كذلك فيه مِن التَّهديد والوعيد للجاحِدين، الّذين استهزؤوا به وأنكروه[2]، وهكذا تتميَّز التَّراكيب القرآنيَّة بإعطاء التَّرغيب والتَّرهيب في آنٍ واحدٍ.

مِن خَصائصِ التَّراكيب القرآنيَّة إعطاءُ المَعْنى وضدِّه في آنٍ واحدٍ

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿ٱلْمَعَارِجِ﴾، وإشارةُ جَمْعِ ﴿ٱلْمَعَارِجِ﴾:

إذا كان في وصفه تعالى بـ ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ إشعارٌ بكثرة مراتبِ القُرْبِ مِن رضاه سبحانه، وتهديد ووعيد للجاحِدين الّذين استهزؤوا به وأنكروه -؛ فإنَّ اصطفاء مفردةِ المعارجِ يُسهم في إضفاءِ مزيدٍ من الجلال على هذا المقام الجليل؛ وذلك أنّ المراقيَ والمصاعدَ المُطْلَقَة غير المقيَّدة بخيرٍ ولا شرّ توحي بتَصاعُد عذابه، كما فيه دلالةٌ على مَراقي نَعيمه سبحانه. وجمعُ ﴿ٱلْمَعَارِجِ﴾ يَدْعَم تلك الدّلالاتِ المُنذِرةَ للكافرين بتصاعُدِ درجات العذاب، المبشِّرةَ للمؤمنين بدرجاتِ النَّعيم والتَّكريم.

فواضِلُ الله تعالى على عِبادِهِ مزيدَةٌ، ومراتِبُ القُرب منه سبحانه عديدَةٌ

والمعارِج: الأماكِنُ المُرْتَفِعَةُ، الّتي يكون الصُّعود إليها دائريّا، كالصّعود إلى المِئْذَنة ونحوِها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزخرف: 33][3]، ومن معاني ﴿ٱلْمَعَارِجِ﴾ أيضًا أنَّها "مصاعد السَّماء للملائكة، جمْعُ: مِعرَج؛ وهو موضِع العُروج"[4]، أو "هي الدَّرجات التي يَصْعَدُ فيها الكَلِم الطَّيّب والعملُ الصّالح، أو يَرْقى فيها المؤمنون في سُلوكِهِم، أو في دارِ ثَوابِهِم"[5].

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 196.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 93.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1157.
(4) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 535.
(5) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 16/ 9.

أو هي السَّماوات؛ وسُمّيَت معارجَ؛ لأنَّ الملائكة تعرُجُ فيها، أو أنَّها أياديه ووجوه إنعامه؛ وهي تصل إلى النّاس على مراتبَ مختلفةٍ، أو هي الدَّرجات التي يُعْطيها أولياءَهُ في الجنَّة[1].

و﴿ٱلْمَعَارِجِ﴾ هنا مُسْتَعارة في الرُّتَب والفواضل والصِّفات الحميدة[2]؛ فلمّا كان القادر يوصَفُ بالعلوّ، والعاجز يوصَفُ بالسُّفول والدُّنوّ، وكان ما يُصعَد فيه إلى العالي يسمّى درجًا، وما يُهبَط فيه إلى السّافل يُسَمّى دَرَكًا، وكانت الأماكِنُ كلُّها بالنِّسبة إليه سبحانه على حدٍّ سواء؛ اختير التَّعبيرُ بما يدلُّ على العلوّ الّذي يُكنى به عن القُدْرَة والعظمة، وسُمّيَتْ بذلك لأنَّ الصّاعد في الدَّرَج يُشْبِهُ مِشية الأعرج، وروي عن ابن عبّاس ﷺ أنَّها السَّماوات، ودلَّ على ما دلَّتْ عليه الكثرةُ مع الدّلالة على عجيب القُدرة في تخفيفِها على الملائكة[3].

علَّةُ فصل جُمْلَةِ ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ عمّا قبلها:

فُصِل قول الله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه استئنافٌ ورَد لِبيان ارتفاع تلك المعارج، وبُعدِ مداها على جِهَةِ التَّمثيل؛ أي: أنَّها بحيثُ لو قُدِّر قَطْعُها في زمانٍ؛ لَكان في زمانٍ يُقَدَّر بخمسين ألفَ سنَةٍ مِن سِني الدُّنيا[4]، فهو كلام مستأنَف مسوقٌ لِتأكيد العُلوِّ البعيد[5]؛ فلو عرفوا الله تعالى، وعرفوا عظمتَه، وسَعة سلطانه وكمال أسمائه وصفاته؛ لَما اسْتَعْجَلوا، ولاسْتَسْلَموا وتأدَّبوا[6].

تقريرُ ارْتِفاعِ المَعارج وتأكيدُ العُلوِّ البعيد

نكتَةُ الاعتراضِ بجُمْلَةِ ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾:

جاء قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ اعتراضًا بين الإخبار عن سؤال المستهزئين، وبين

صَبْرُ الدّاعيةِ على سفاهةِ مدعوّيه سُلَّمٌ إلى مَراقي أهل الشَّرَف العالية

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 316.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 365.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 390.
(4) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 16/ 9.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 209.
(6) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 885.

وصيّته ﷺ بالصَّبر على تكذيبهم - حتّى يحِلَّ بهم عقابُ اللّهِ تعالى الواقعُ لا محالةَ - للتَّعجيل بذِكْرِ ما يُعينه على الصَّبر، ويُسَلِّحه ﷺ به مِن بيان ضآلتِهم أمامَ عظمة الملكوت، والإيحاء بأنّ صَبْر الدّاعيةِ على سفاهةِ مدعوّيه سُلَّمٌ يَرتقي به إلى مَراقي أهل الشَّرَف العاليةِ.

دلالَةُ التَّعبير بالعروج في الفعل ﴿تَعۡرُجُ﴾، ونُكْتَةُ صَوْغِه مضارعًا:

دقَّـــةُ اختـيـارِ الألفاظ القرآنيَّة في مـادَّتـهـا وصيغَتِها

في إيثار التَّعبير بالعروج دون الصُّعود في قوله تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ دقّة دلاليَّة بالغة؛ إذْ فيه إلماحٌ إلى أنَّ عروج الملائكة والرّوح قد يكون صعودًا بالدّوران إلى جهة دائريّة لا عموديًّا، "في خطوط مُقَوَّسة داخلَ قُبَّة الفَلَك، الّتي تُمَثِّل دائرةً عظيمة لا نهاية لها"[1].

كما أنَّ في التَّعبير بالعروج في الفعل ﴿تَعۡرُجُ﴾ اتِّساقًا مع ذِكر ﴿ٱلۡمَعَارِجِ﴾ في وصفه تعالى ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾؛ ممّا يُحقِّق للتّركيب جناسَ الاشتقاق، اللّافت إلى ارتباطِ عُروج الملائكة والرّوح بمَعارجِه وفواضلِه ﷻ.

و"يحتمل أن يكون معنى ﴿تَعۡرُجُ﴾ ليس عَن هبوطٍ يَصعَد ويَعرج، لكن أنشأهم كذلك معروجين؛ كقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [الزمر: 6]؛ أي: أنشأهم كذلك، وقوله ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ [الرحمن: 7]، ليس أنَّها كانت في موضع منحطٍّ فرَفَعَها، لكنَّه كذلك خلقها مرفوعة؛ فعلى ذلك قوله ﷻ: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: أنشأهُم كذلك ليَسْتَعْمِلَهُم ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾"[2].

وفي صوغ العروج فعلا مضارعًا؛ دلالةٌ على امتداد زَمنِه واتِّساعه؛ إذ الفعل المضارعُ يدلُّ على التَّجدُّد والاستمرارِ.

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1157.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 197.

توجيهُ القِراءات القرآنيَّة في الفعل ﴿تَعۡرُجُ﴾:

التَّكامُل الدّلاليّ بين القراءاتِ القُرآنيَّة

قرأ الكسائيُّ (يَعْرُجُ المَلائِكَةُ) بالياءِ، وقرأ الباقون ﴿تَعۡرُجُ﴾ بالتّاء[1]؛ وذلك لأنَّ لفظَ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مؤنَّثٌ، وتأنيثُهُ مجازيٌّ غيرُ حقيقيٍّ، ولذا يجوزُ تذكيرُ الفعل مَعَهُ وتأنيثُهُ. وبالياءِ المثنّاةِ مِن تحتُ كان يقرأ ابنُ مسعودٍ ﷺ؛ لأنَّهُ كان يُذَكِّر الملائكةَ، وهي كذلك قراءةُ الأعمشِ[2].

دلالةُ اختصاصِ الملائكةِ بالعُروجِ ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

الملائكة أقدرُ الخلق على اختراق الطِّباق، وهم أعظمُ مِن لمح البرق الخفّاق

في التَّنصيص على عروج الملائكة كنايَةٌ عن بُعد المسافات، وعلوّ المقامات إلى فوق ما يُطيقهُ التَّصوُّر؛ لأنَّ قدرة الملائكة على قطع المسافات الأطول في الوقت الأقصر فوقَ قدرة غيرهم مِن خلق الله تعالى بمراحلَ؛ لأنَّهم "أشدُّ الخلق، وأقدرُه على اختراق الطِّباق، والإسراعِ في النُّفوذ حتّى يكونوا أعظمَ مِن لمح البرقِ الخفّاق"[3].

فإذا كان عُروجُهم في يوم يمتدُّ إلى ما مقداره بالنِّسبة إلى غيرهم خمسين ألفَ سنة؛ فإنَّ سعةَ ملكوتِ الله تعالى ممّا لا يُحاط به، ولا يُطيقُه خيالٌ.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

للملائكة قدراتٌ لا تكونُ لغَيْرِهِم

(أل) في ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ للعهدِ العلميِّ؛ والمرادُ بهم: الملائكة الموكَّلون بذلك، لاخْتِصاصِهم بقُدرات لا تكونُ لغيرهم ممَّن لا يغادرون إلى تلك المسافات، ولا يُكَلَّفون بذلك العروجِ.

معنى (الواو) في قوله: ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾:

بيانُ شرفِ جبريلَ عليه السلام

(الواو) في قوله تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ عاطفَةٌ؛ حيث

(1) النيسابوري، المبسوط في القراءات العشر، ص: 446، وابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 390.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 365.

(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 391.

جَمَعَتْ عمومَ الملائكةِ الموكّلين بالعروجِ إلى خصوصِ الرّوح - وهو جبريلُ عليه السلام -؛ في العروجِ إلى اللّهِ عز وجل في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وذلك من عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ تنويهًا بشأن الفردِ الخاصِّ وهو جبريلُ عليه السلام، وبيانِ شرفه، وعلوِّ مرتبته.

دلالةُ الرّوح في قوله: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾:

الرّوح عند أكثر العلماء في قوله تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ جبريلُ عليه السلام - بل إنَّ ابن جرير لم يَحْكِ خلافًا عن السَّلفِ في هذا الموضع[1] -، وقَد أُفرِدَ بالذِّكرِ مع اندراجِهِ في جملة الملائكةِ؛ لتميُّزه بفضله. وقيل: الرّوح خلقٌ؛ هم حَفَظَةٌ على الملائكة، كما أنّ الملائكةَ حفظة على النّاس[2]، أو هو روحُ الميِّت حين يُقْبَض[3]، أو روح العبد المؤمن إذا قُبِض[4].

الـرّوح أعـظَـمُ الملائـكـةِ قَـدْرًا؛ وهو جبريلُ عليه السلام

وقال الرازيّ: "متى ذُكِر الملائكة في معرض التَّهويل والتَّخويف؛ أُفرِدَ الرّوح بعدهم بالذِّكر، كما في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ﴾ [النّبأ: 38]، وهذا يقتضي أنَّ الرّوح أعظمُ الملائكةِ قدرًا. ثُمّ ههنا دقيقةٌ؛ وهي أنَّه تعالى ذَكَرَ عندَ العروجِ الملائكةَ أوّلًا والرّوح ثانيًا - كما في هذه الآية -، وذكَر عند القيام الرّوح أوّلًا والملائكة ثانيًا، كما في قوله: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ﴾ [النبأ: 38]، وهذا يقتضي كونَ الرّوح أوّلًا في درجةِ النُّزول وآخرًا في درجةِ الصُّعود"[5].

معنى (إلى)، ونكتةُ تقييد العروجِ بالجارِّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِ﴾:

(إلى) في قوله تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ لانتهاء

الـلـه تـعـالى مُـنْـتـهـى غـايـةِ الملائكةِ والرّوح

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 391.
(2) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 601.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 90.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 391.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 638.

الغايةِ؛ أي: أنَّ غاية عروجهم المثولُ بين يدي جبروته ﷻ، وعرض ما دوّنوه على العبادِ، كما جاء في قول النَّبيِّ ﷺ: "يَتعاقَبونَ فيكُمْ مَلائِكَةٌ باللَّيلِ، ومَلائِكَةٌ بالنَّهارِ، ويَجْتَمِعونَ في صَلاةِ الفَجْرِ وصَلاةِ العَصْرِ. ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذينَ باتوا فيكُمْ. فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ، وهوَ أعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبادي؟ فَيَقولونَ: تَرَكْناهُمْ وهُمْ يُصَلّونَ وأتَيْناهُمْ وهُمْ يُصَلّونَ"[1].

بيانُ مرجع الضَّمير في ﴿إِلَيْهِ﴾، ونكتةُ تأخير ذلك القَيْدِ:

عـروجُ الملائكةِ إلـى مـوضِـعِ المُناجاةِ ومُنْتَهى مـا يُـمْـكِـنُـهُـم العلوُّ إليهِ

الضَّمير المجرور في القيد ﴿إِلَيْهِ﴾ مِنْ قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ يرجع إلى الاسم الأحسَنِ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾، وذلك على حذفِ مضافٍ، والتَّقدير: "محلّ مناجاته، ومنتهى ما يمكن مِن العلوِّ لمخلوقاته[2].

وفي تأخير القيد ﴿إِلَيْهِ﴾ مِنْ قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ إشارةٌ إلى أنّ لِعروج الملائكة يومئذ غاياتٍ جانبيَّةً أيضا، يُؤْمَرون بتنفيذها في طريقِ عُروجِهم حتّى ينتهوا إلى غايَتِهم.

معنى ﴿فِى﴾ في قوله: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ﴾:

يـومُ عـروجِ الملائكة والرّوح يومٌ متطاوِلٌ في زمانِهِ

قوله: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يَتنازَع تعلُّقَه كلٌّ مِن قوله: ﴿وَاقِعٍ﴾، وقوله: ﴿تَعْرُجُ﴾"[3]. و﴿فِى﴾ مِنْ قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ظرفيَّة زمانيَّة، تَدّعم القول بأنَّ تطاوُلَ ذلك اليومِ شديدٌ، وأنَّ كلَّ ما يجري: يكون فيه وفي حيزِّه.

المقصود باليوم، وثمرةُ تعلُّقِ القيد ﴿فِى يَوْمٍ﴾ بكل من ﴿وَاقِعٍ﴾ و﴿تَعْرُجُ﴾:

مـن بـراعـة النَّظم القرآنيّ وفـرَةُ الوشائجِ المَعْنَويّة الرّابطة بـين عـنـاصـرِ تَراكيبِه

تعدَّدت آراء العلماء في تحديد يوم عروجِ الملائكة والرّوح في قوله تعالى: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، فمِن قائل: إنَّه "يومُ

(1) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (555)، ومسلم في صحيحه، برقم: (632).
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 391.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 157.

الدُّنيا كلِّها من أوّل ما خلق الله تعالى الخلقَ إلى آخر الفناء؛ فبيَّن تعالى أنَّه لا بدّ في يوم الدُّنيا من عروج الملائكة ونزولهم، وهذا اليومُ مقدَّرٌ بخمسين ألفَ سنةٍ. ثُمَّ لا يَلزم على هذا أنْ يصير وقتُ القيامة معلومًا؛ لأنّا لا ندري كم مضى منها وكم بَقي؟[1].

وذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّهُ يومُ الحِساب في عُرْف الخَلْق، وأنَّهُ لَو تولَّى بعضُهم محاسبةَ بعضٍ؛ لكان مدَّةُ حسابِهم خمسين ألف سنَةٍ، إلّا أن الله تعالى يتولّاه في أسرع مُدَّة[2].

ومن براعة النَّظم القرآنيِّ وفرَةُ الوشائج المعنويَّة الرّابطة بين عناصِرِ تراكيبه ووثاقتُها، ومن ذلك هنا ارتباط القيدِ ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ﴾ بكلٍّ من اسم الفاعل ﴿وَاقِعٍ﴾؛ فيكون المعنى أنَّ ذلك العذابَ واقِعٌ في يوم عسيرٍ طويلٍ، طولُه خمسونَ ألف سنة، وبالفعلِ ﴿تَعْرُجُ﴾؛ فيكونُ المَعْنى أنَّ عُروجَهُم في يومٍ هذا وصفُه، وكلاهُما مؤثِّر في تربية المعنى الكنائيِّ عن طول ذلك اليوم وشدّة التَّبعة فيه.

وهذا الطّول وتلك الشِّدَّةُ تكون على الكافرين فحسبُ، وأمّا المؤمنون فإنَّ الله يُخفِّف عَنْهُم؛ ويدلُّ لذلك قول الله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ [المدثر: 9 - 10]، ويُستأنسُ لذلك أيضًا بما روي أنَّ رسول الله ﷺ سُئلَ عن يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا! فقال: "والّذي نَفْسي بيده إنه لَيُخفَّفُ على المؤمنِ حتى يكونَ أخَفَّ عليه من صلاةٍ مكتوبة يصلّيها في الدُّنيا"[3].

دلالة التَّعبير بالكونِ ماضيًا:

عُبِّر بفعل الكون ماضيًا في جملة الصِّفة ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ مع أنَّه لمّا يكن بعدُ؛ لإفادَةِ القَطْعِ والجَزْمِ بكونِه ووقوعِه، فما قدّره الله تعالى وقضاهُ كائنٌ لا محالةَ.

دلالَةُ التَّعبير بِمُفْرَدة (المِقْدار):

في التَّعبير بمفردةِ (المِقْدار) إيماءٌ إلى انْضِباط حركاتِ الأكوانِ انْضِباطًا دقيقًا مُحْكمًا، يَحْفَظُ للكون اتِّزانَه، كما يدلُّ عليه أيضًا قولُ الله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 639.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 90.
(3) رواه أحمد في مسنده، برقم: (11717).

حركاتُ الأكوان مـنـضـبـطـة انضباطًا دقيقًا

﴿بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾ [الرّحمن: 5]، والمعنى هنا: أنَّه "كان مقدار صعودهم ذلك في يومٍ - بالنِّسبة لغيرهم مِن الخلقِ - خمسين ألف سنة، وذلك أنَّها تصعدُ مِن منتهى أمره مِن أسفل الأرض السّابعة، إلى منتهى أمره مِن فوق السَّماوات السَّبع"[1].

دلالة العددِ ﴿خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ في السّياق:

تحـقـيـقُ هـولِ شـأنِ الـقيامة والبعْثِ

وردَتْ جملةٌ مِنَ الأعداد في القرآن الكريم مستعمَلَةً - عند بعض أهل العلم - في الكناية عن معانٍ مهمّة في سياقاتها، ثُمَّ هي مع ذلك تحملُ دلالاتٍ دقيقةً على مقصودها في مواضعها.

ومن ذلك تحديدُ المدّة هنا بـ﴿خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾، فبعض العلماء يقول في تأويلِه: إنَّه لو قُدِّر ذلك العروجُ بعُروج البشر وسَيْرِهم؛ لَكان مقدارَ خمسين ألف سنة.وقد قال الله ﷻ: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾، وقال في موضعٍ آخَرَ: ﴿أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السّجدة: 5]، فيحتمل أن يكون هذا الوقتُ وقتَ تقدير عروج الملائكة وصعودِهم؛ وهو أنَّ بعضَهُم ينزل ثُمَّ يَعرج في يومٍ واحد، مقدارُ ذلكَ المَسير ألفُ عامٍ، وبعضهُم ينزل ويعرُج في يومٍ واحدٍ مسيرة خمسين ألف سنة، فيكون في هذا تبيينُ قوَّةِ بعض الملائكة على بَعْضٍ، وأنَّ فيهم مَن يسير مسيرة خمسين ألفَ سنة في يوم واحدٍ، وفيهم مَن يسير مسيرة ألفِ سنَةٍ في يومٍ واحدٍ.

ومَن قَدَرَ على أن يَخْلُق في خلقٍ مِن خلائقه مِن القوَّة ما يَقطع هذه المسافة في يومٍ واحد؛ لا يُعجزه شيءٌ ألبتَّةَ؛ فيكون في ذِكْرِ هذا تحقيقُ كونِ ما به هولُ أمر القيامة والبعث.

ويحتمل أن يكونَ المَعْنى أنَّه لو جُعِل حسابُ الخلق يومئذٍ إلى الخَلْقِ، فتكلَّفوا أنْ يَفْرَغوا من حسابِهم؛ لن يفرغوا منه إلّا في

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 251.

مقدار خمسين ألف سنة، لكنَّ الله تعالى بلُطْفِه يُحاسِبُهُم حسابًا يَفْرَغون منه في أدنى وقتٍ حتّى يصير أهلُ الجنَّة إلى الجنَّة وأهلُ النّار في النّار؛ على ما جاء في الأخبار، وذلك قوله: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة: 202][1].

لطيفُ التَّعبير بلفظ ﴿سَنَةٍ﴾:

بيانُ شِدَّةِ شأنِ اليومِ الآخِرِ

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبير هنا بـ ﴿سَنَةٍ﴾ دون عام؛ لما تقرَّر من أنَّ لفظ السَّنة يُستعمَلُ غالبًا فيما كان فيه شدَّةٌ، بخلاف لفظِ العام فإنَّه يُستعمَلُ غالبًا في الرَّخاءِ واللّين والخَيْرِ، ولمّا كان المقصودُ ههنا بيانَ شدَّة أهوال القيامَةِ والبَعْثِ؛ ناسبَهُ أن يُعبَّر بلفظ (السَّنَة)، كما قال البقاعيُّ: "بَيَّن المشقةَ في صعوده، أو الكون فيه - إنْ أُريد القيامةُ - بأنْ قال: ﴿سَنَةٍ﴾ ولم يقل: عامًا"[2].

وذكر بعضُ أهل العلم أنَّ "السَّنَة من أوَّل يوم عدَدْتَه إلى مثله، والعام لا يكون إلّا شتاءً وصيفًا"[3]، ولمّا كان الغرضُ هُنا بيانَ العددِ دونَ مراعاةِ صيفه وشتائه؛ كانَ التَّعبيرُ بالسَّنة أنسبَ.

بلاغةُ التَّمثيل في قوله: ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾:

بيانُ ارتفاعِ المَعارج وبُعْدِ مَداها، وطولِ يومِ القيامة بِشَدائدِهِ ومَكارِهِه

المقصود بالعددِ في قوله: ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يحتَمِلُ أن يكون ذلك تحديدًا، ويجوزُ أن لا يكون المرادُ بالعدد المذكور حقيقتَه، بل مجرّد الاستطالة، وهكذا كل زمانٍ شِدَّة، كما قيل:

تمتَّع بأيّام السُّرور فإنَّها *** قصارٌ، وأيّام الغموم طِوالُ[4]

فذِكر هذا المقدار - على هذا - بمُجرَّد التَّمثيل والتَّخييل لغايةِ ارتفاعِ تلك المعارج وبُعْدِ مَداها، أو لِطول يوم القيامة باعتبار ما فيه

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 197.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 391.
(3) الفيومي، المصباح المنير: (عوم).
(4) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 241.

من الشَّدائد والمكاره، كما تصف العربُ أيّام الشِّدَّة بالطّول وأيّام الفرح بالقِصَر، ويُشَبِّهون اليومَ القصيرَ بإبهام القَطاة، والطويلَ بِظِلِّ الرُّمْح، ومنه قول الشاعر[1]:

ويومٍ كظلِّ الرّمح قَصَّرَ طولَهُ *** دمُ الزِّقِّ عنّا واصْطِفاقُ المَزاهِرِ[2]

والمقصود: أنَّه يعدِل خمسين ألفَ سنة مِن أزمان الدُّنيا؛ أي: أنَّ ما يقطعه المَلَك في عروجه إلى السَّماء في يوم واحد؛ يَقطعه الإنسانُ في خمسين ألف سنة بأقوى ما يُمكن أن يَتوسَّل به مِن وسائلَ[3].

توجيه المُتشابه اللَّفظيِّ في الآية الكريمَةِ:

اخْتِلافُ الأزمِنَةِ راجِعٌ إلى اخْتِلافِ مُتَعَلّقاتِها

ذَكَر اللهُ ﷻ في سورة السَّجدة أنَّه ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السَّجدة: 5]، وقال في سورة الحجِّ: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٤٧﴾ [الحجّ: 47]، وذَكَرَ هنا قوله: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾.

و"الجمعُ بين هذه الآيات مِن وجهين؛ أوَّلهما: ما جاء عن ابن عبّاس مِن أنَّ يوم الألفِ في سورة الحجِّ هو أحَدُ الأيّام السِّتَّة التي خلقَ اللّه تعالى فيها السَّماوات والأرض، ويوم الألفِ في سورة السَّجدة؛ هو مقدار سَيْرِ الأمر وعروجِهِ إليه تعالى، ويومُ الخمسين ألفًا هُنا: هو يومُ القيامة. وثانيهما: أنَّ المراد بجَميعِها يومُ القيامة، وأنَّ الاختلافَ باعْتِبار حالِ المؤمن والكافرِ.

ويدلُّ لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ۝١٠﴾ [المُدَّثِّر: 9 - 10]؛ أي: أنَّ يوم القيامة يَتفاوت طولُه بحسَبِ اختلاف الشِّدَّة، فهو يُعادل في حالٍ ألفَ سنة من سِني الدُّنيا، ويعادل في حالٍ أخرى خمسين ألفَ سنَةٍ[4].

(1) هو يزيد بن الطثرية، يُنظر: حاتم الضامن، شعر يزيد بن الطثرية، ص: 73.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 345.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1158.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 94.

وروى ابنُ جرير أنَّ رجلًا سأل ابنَ عبّاس عن قول الله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، قال: فاتَّهَمَهُ. فقيل له فيه، فقال: ما ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾؟ فقال: إنَّما سألتُكَ لتُخْبِرَني، فقال: هما يومانِ ذَكَرَهُما اللهُ جلَّ وعزَّ، اللهُ أعلمُ بِهِما، وأكره أن أقولَ في كتابِ اللهِ بما لا أعلَمُ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الوُقوع والنُّزول:

الوُقوعُ: ثبوتُ الشَّيءِ وسقوطُهُ[2]. والوقوع في قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ يحتَمِلُ المَعْنَيَيْن؛ أي: أنَّ عذابه ﷻ ثابتٌ لِمُسْتَحقّيه، محقَّقٌ الحصول لهم مِن أيِّ جهة، أو ساقط عليهم من جهة العلوِّ.

الوُقوعُ الحصول والسُّقوطُ، والنُّزول الانحطاطُ والحلولُ

وأمّا النُّزول؛ فهو في الأصلِ انحطاطٌ من عُلوٍّ. يقال: نزَلَ عن دابَّته، ونزل في مكانِ كذا؛ إذا حطَّ رَحْلَهُ فيه، وأنزلَهُ غيره. قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون: 29]، ونزَلَ بِكَذا وأنزله بِمَعْنًى واحدٍ، وإنزالُ اللهِ تعالى نِعَمَهُ ونِقَمَهُ على الخلق: إعْطاؤُهُم إيّاها[3].

الدّفع والرَّدّ:

الدَّفْعُ أعمُّ من الرَّدِّ مطلقًا؛ إذ الرَّدُّ يختصُّ بما كان إلى خلفٍ، بخلاف الدَّفْعِ فيشمَلُ ذلك وغيرَهُ، ولذا قال أبو هلال: "الرَّدُّ لا يكون إلّا إلى خلف، والدَّفْع يكون إلى قُدّام وإلى خلف جَميعًا"[4].

الرَّدّ إلى الخلف خاصّة، والدَّفع أعمُّ

العروج والصُّعود والارتفاع:

العُروجُ: نُشوزٌ أو عِوَجٌ عن الاستواء في الاطِّرادِ إلى الأعلى أو الجانبِ، والصُّعود في الدَّرَجَة، وكلاهما إلى أعلى. ومِنْهُ: انعراج

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 254.
(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (وقع).
(3) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (نزل).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 114.

الطَّريق والوادي والبناء، وكلُّها إلى جانب[1]، فالعروجُ هو الصّعود على وجهٍ مائِلٍ[2].

العروجُ الصّعود مع مَيْلٍ إلى جانب، والصّعود علوٌّ حِسّيٌّ، والارتفاعُ علوٌّ مطلَق

والصُّعود مقصورٌ على الارتفاع في المكانِ، ولا يستعمل في غيره، فيُقال: صَعِدَ في السُّلَّم والدَّرجة، ولا يقال: صَعِدَ أمرُه. وأمّا الارتفاعُ والعلوُّ؛ فيُشْتَرَطُ فيهما جميعُ ذلك.

والصُّعود أيضًا: هو الذَّهاب إلى فوق فقط، وليس الارتفاعُ كذلك؛ ألا تَرى أنَّه يُقال: ارتَفَع في المجلس، ورَفَعْتُ مَجْلِسَه وإن لم يُذْهب به في علوٍّ، ولا يُقال: أصعدتُه إلّا إذا أعْلَيْتَه[3].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عرج).
(2) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 22/ 45.
(3) العسكري والجزائري، معجم الفروق اللغوية، ص: 314.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والستون،
سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 63 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-00-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 63 : المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-00-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7111585 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"